منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (5268) السنة العشرون - الاربعاء (21) ايلول 2022

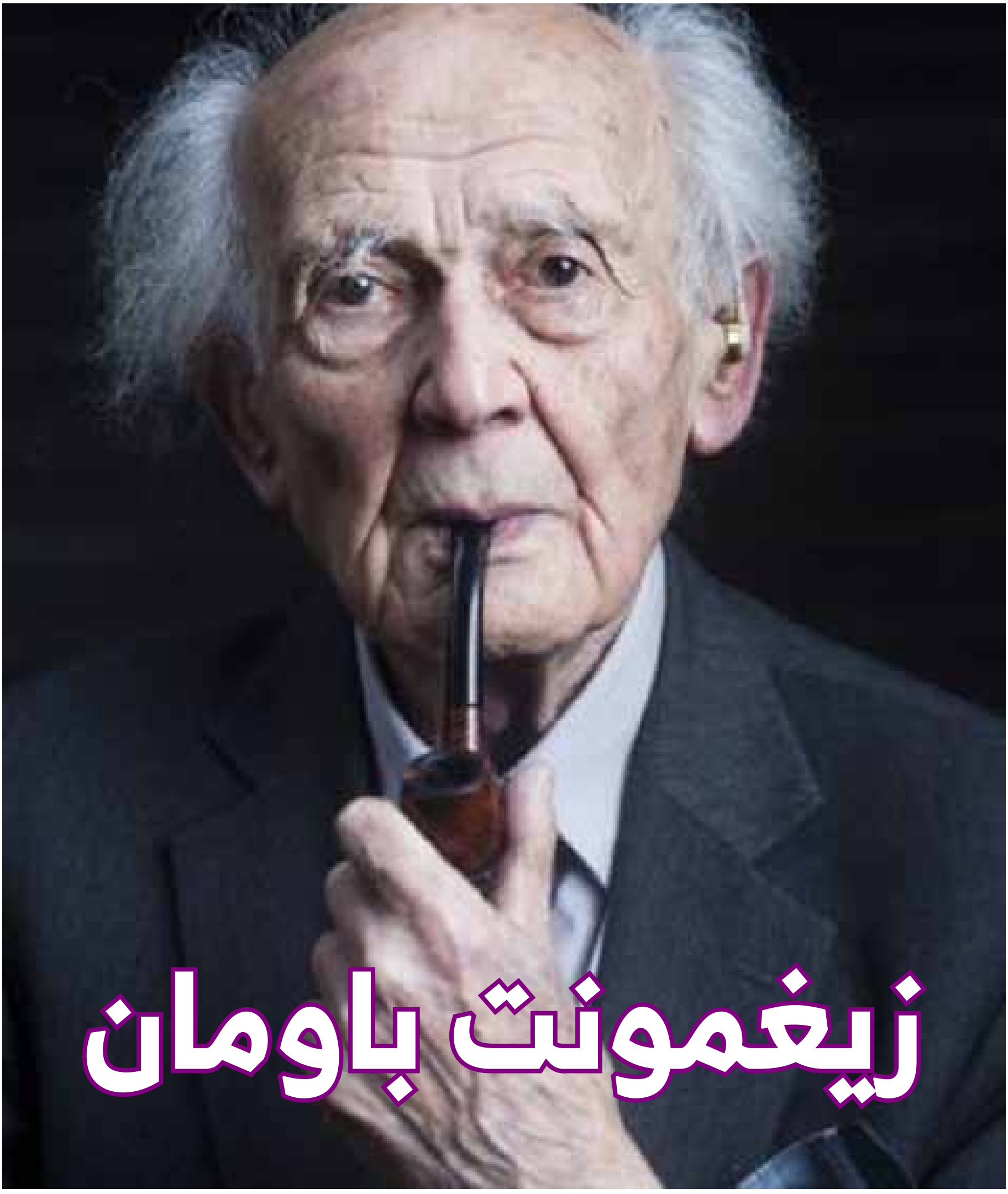

زيغمونت باومان

زيغمونت باومان: من «الحداثة الصلبة» إلى الحداثة «السائلة»

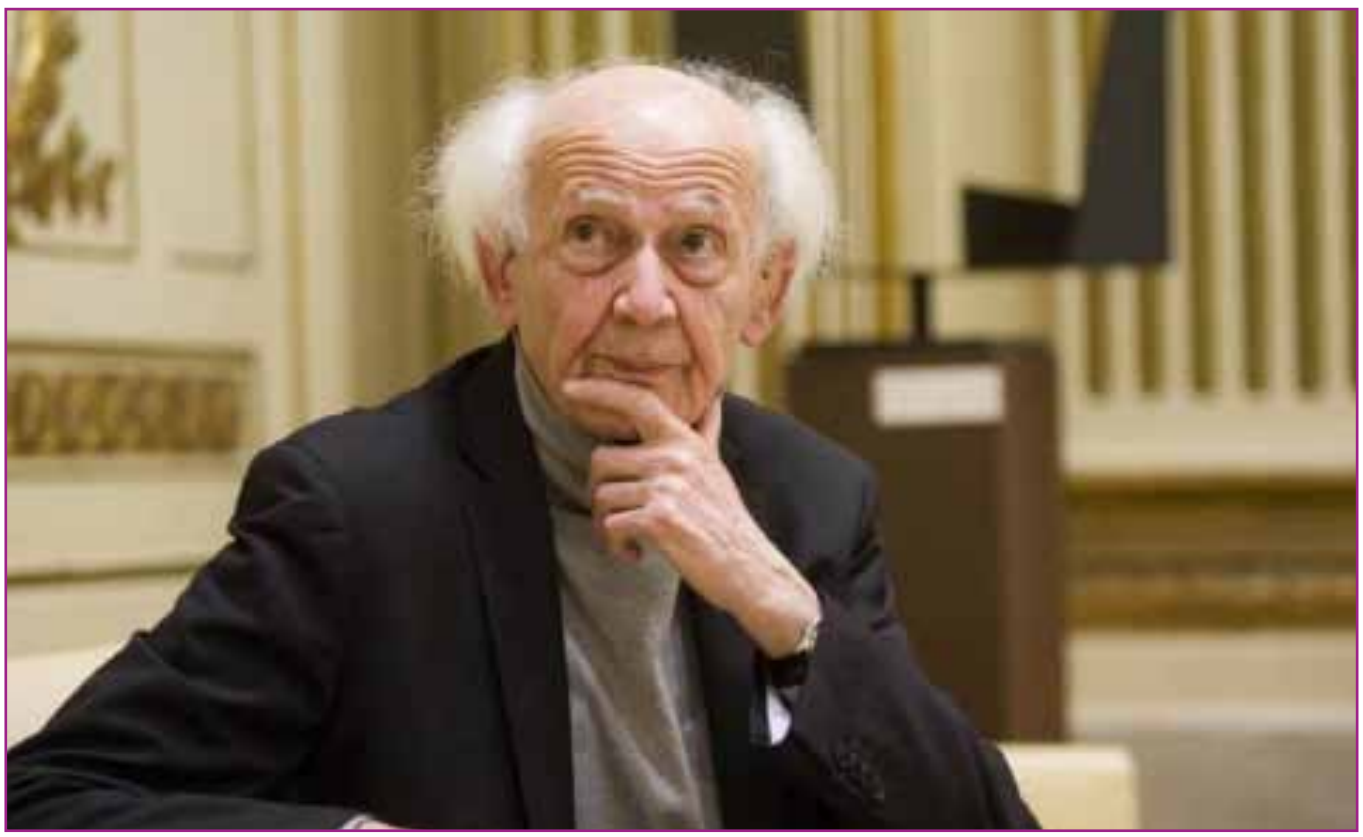

العلوي رشيد

زيغمونت باومان، سوسيولوجي وفيلسوف بولندي. ولد في بوزنان سنة ١٩٢٥، لأبوين يهوديين اضطرا لمغادرة بولندا بعد الغزو النازي سنة ١٩٣٩ في اتجاه الاتحاد السوفياتي. واختارا سنة ١٩٥٣ التوجه إلى إسرائيل. غير أن ذلك لم يَرُق للسوسيولوجي المعادي للصهيونية. ففي مقابلة له عام ٢٠١١ مع مجلة «بوليتكا» البولندية، انتقد باومان إسرائيل بقوله إنها لم تكن مهتمة إطلاقا بالسلام، بل كانت تستخدم الهولوكوست كعذر لشرعنة أفعالها المتوحشة، مشبها الجدار الفاصل الذي أقامته في الضفة الغربية، بالجدران التي وضعتها النازية في وارسو (الغيتو)، عندما قتل آلاف اليهود في الهولوكوست.

سبق لزيغمونت أن اشتغل في المخابرات العسكرية البولندية كمدرس في العلوم السياسية. وخلال تلك الفترة (١٩٣٩ – ١٩٥٣)، درس السوسيولوجيا في أكاديمية وارسو، على يد كبار السوسيولوجيين البولنديين، أمثال ستينسلو أوسوسكي وجوليان هوتشفيلد. غير أنه سيغادر قسم السوسيولوجيا نحو قسم الفلسفة، بسبب حظر علم الاجتماع في بولندا، لأنه «علم اجتماع بورجوازي». وفي عام ١٩٥٤، أصبح محاضرا في جامعة وارسو، حيث استقر بها إلى عام ١٩٦٨، خلال وجوده في قسم الاقتصاد في جامعة لندن. وشغل منذ ١٩٧١ كرسي الأستاذية في قسم علم الاجتماع في جامعة ليدز، حيث أصبح، فيما بعد، رئيسا للقسم. ومنذ ذلك الوقت، كانت كتب باومان تنشر باللغة الإنجليزية على وجه الحصر، إلى أن عد منذ العقد التاسع من القرن الماضي، أحد أبرز أوجه حركة مناهضة العولمة النيوليبرالية.

نشر بومان ما يقارب السبعة والخمسين كتابا، ونحو مائة مقال. ونالت أعماله كثيرًا من الجوائز العالمية، من بينها جائزة أميرة استورياس في إسبانيا عام ٢٠١٠. وهي أعمال تشمل مجالات مختلفة مثل: العولمة، والحداثة، وما بعد الحداثة، والاستهلاك، والنظام الأخلاقي، والبيروقراطية، والعقلانية، والإقصاء الاجتماعي، ومن أهمها: دراسة عن «الحركة الاشتراكية البريطانية» (كتابه الأول الذي نشر بالبولندية سنة ١٩٥٩ وتم تنقيحه وترجمته إلى الإنجليزية سنة ١٩٧٢)، «حياة بلا روابط» (٢٠٠٥)، «شراء الأقلية» (٢٠١٤). ومن كتبه المترجمة إلى العربية، نجد: «الحداثة السائلة»la modernité liquide (الشبكة العربية للأبحاث والنشر ٢٠١٦)، «الحداثة والهولوكوست» (مدارات، ٢٠١٤)، «الحب السائل: حول هشاشة العلاقات بين الناس» (الشبكة العربية ٢٠١٦)، «الحرية» (مدبولي ٢٠١٢)، «الأخلاق في عصر الحداثة السائلة» (مشروع كلمة ٢٠١٦). ويمكن تفسير هذا الاهتمام العربي المتأخر بفكر ونصوص ريغمونت، بالحاجة إلى تفكير نقدي يواكب مستجدات العصر والإشكالات التي يطرحها مجتمع الاستهلاك اليوم، بالنظر إلى حدة أطروحته التي يمزج فيها بين مجالات عدة: السوسيولوجيا، الفلسفة، الأدب، الاقتصاد، السياسة.

مر تفكير زيغمونت في مساره الفكري والفلسفي، بأربع مراحل لا تنقطع فيها الواحدة عن الأخرى، بل يمكن النظر إليها كوحدة ناظمة لمجموع أطروحته النقدية، نجملها فيما يلي:

المرحلة الأولى «مرحلة بولندا»، وهي التي كتب فيها كثيرًا من النصوص باللغة البولندية: امتدت إلى ما يقارب العقد من الزمن (١٩٥٧ – ١٩٦٨)، حيث تأثرت أعماله بالماركسية الأرثوذوكسية، التي سيتمرد عليها بعد نفيه من بلده الأصلي إلى بريطانيا، بسبب نقده للمجتمع الشيوعي البولوني وللاتحاد السوفياتي.

المرحلة الثانية: (١٩٧١ – ١٩٨٢)، حين درس علم الاجتماع النقدي متأثرًا بجورج سيمل وأنطونيو غرامشي. وفيها اكتشف عوالم الفرد والمجتمع والتنظيمات الاجتماعية، وبلور رؤية المجتمع الصلب الذي ينطبق على طور الرأسمالية الإنتاجية، القائمة على الصناعة والتجارة والتبادل واستغلال الموارد الطبيعية والمواد الأولية.

المرحلة الثالثة: (١٩٨٧ – ١٩٩١)، التي تميزت بنقده الجذري للحداثة، بما هي السبب في كثير من المآسي التي عاشتها البشرية طوال القرن العشرين، حيث تنامى العنف في أشكاله الفظيعة. فأبشع «الجرائم في تاريخ الإنسان لم ينشأ من خرق النظام، بل عن اتباعه بشدة وبلا أخطاء. فلم تكن الهولوكست جريمة ارتكبتها مجموعة من الغوغاء، بل نفذتها مجموعة محترمة ومنظمة ترتدي زيا رسميا، وتتبع القانون، وتتحرى الدقة في تعليماتها» («الحداثة والهولوكوست» ص٢٤٥). وهو في هذا، يتفق مع حنة آرنت في وصفها للشر السياسي التافه الذي طبع تاريخ الفاشية الألمانية، حيث تنسب المسؤولية للنظام القمعي الذي ارتكب الجرائم، وليس لإيخمان الذي حوكم سنة ١٩٦٣ بتهمة المسؤول عن جرائم الحرب. كما تميزت هذه المرحلة بأفول دور المثقف. ففي حواره (فبراير/ شباط ٢٠٠٨) مع كاترين بورتفين (ترجمه إلى الفرنسية جيريم دافيس ولورينا جاليوت): «مثلت الثمانينات نهاية مرحلة تاريخية مهمة كان فيها دور المثقفين حاسما، إذ انتهى حلم كبير أسس له فلاسفة الأنوار كحلم يعد بمجتمع مثالي ويضمن السعادة للبشر، مجتمع يحكمه العقل البشري بفضل الإبداع والعمل البشريين. أفلت فكرة المجتمع المثالي تلك مع نهاية الألفية الثانية، حين وضع حد لها عنوة. وهذا ما يسميه بنهاية اليوتوبيات أو الأيديولوجيات المرتبطة بنهاية الدولة – الأمة. ويتجسد ذلك، في نظره، في التناقض الحاصل بين مجال السياسة ومجال السلطة. ففي العالم المعاصر، بعد انهيار الدولة – الأمة، تتجه السلطة نحو الأعلى، نحو عالم ما بعد الدولة – الأمة (المعولم)، في حين تنحدر السياسة نحو الأسفل (المجال الوطني) وتظل حبيسة الدول المحلية – الوطنية. وبهذا لم يعد المثقف قادرا على التأثير في السياسيين المحليين لأنه يدرك أن السلطة والقوة ليستا بيده بل تتجاوزانه.

المرحلة الرابعة: (١٩٩٢ إلى اليوم)، حيث اشتهر على نطاق واسع بنقده لما بعد الحداثة، كمرحلة عممت فيها ثقافة الاستهلاك والحرية الفردية، وفيها أطلق (سنة ١٩٩٨) مفهوم المجتمع السائل (مجتمع الاستهلاك والحرية الفردية) لتعويض المجتمع ما بعد الحداثي. ففي المجتمع السائل، كمجتمع استهلاكي يمثل نموذج الاقتصاد النيوليبرالي، الذي يسم الحقبة الراهنة من تطور الرأسمالية العالمية، يندمج الفرد بفضل استهلاكه وقدرته على إشباع رغباته في السوق. وقد ترجمت أعماله في هذه المرحلة إلى لغات عالمية عدة.

يصعب اختصار كل أفكار هذا الفيلسوف النقدي في هذا المقال، بالنظر إلى كثافتها وصعوبة التوليف بينها من دون تخصيصها مدخلاً تفصيليًا لجميع رؤاه، حول العنف والهوية والديمقراطية والسياسة والعولمة. في تحديده للفرق بين الحداثة الصلبة والحداثة السائلة، يقول: «لم أنظر الآن، ولا أنظر الآن، إلى الصلابة والسيولة باعتبارهما ثنائية متعارضة، بل أنظر إليهما على أنهما حالتان متلازمتان تحكمهما رابطة جدلية. إن البحث عن صلابة الأشياء والحالات هو ما دفع إلى إذابتها، وأبقى على استمرارية الإذابة، ووجه مسارها. فلم تكن السيولة خصما معاديا، بل أثر من آثار البحث عن الصلابة، ولم يكن لها أبٌ سواه، حتى عندما أنكر ذلك الأب أنها ابنته الشرعية» (الحداثة السائلة، ص ٢٧). فالجدل يقضي بكون حالات لم تعرف من قبل حداثة صلبة، لكنها الآن في صلب الحداثة السيالة، ويتوجب عليها أن تتقن المشي على رمال متحركة. لأن ما يجري في عالم اليوم، لا تحكمه لا اتفاقية وارسو (حول حق الأقليات في تقرير المصير) ولا اتفاقية ويستفاليا حول الدولة – الأمة (الوطنية)، لجهة أن الحدود السيادية لم تعد كما كانت، أي أن العلبة السوداء للسيادة الوطنية، بتعبير سيلا بنحبيب، يتوجب فتحها. فالمهاجرون يتدفقون من كل حدب وصوب، كما تتدفق الأموال والسلع والمعلومات. لقد صار كل شيء معولما حتى ما نعتقد أنه حبيس حميميتنا الخاصة. لهذا «نستطيع أن نسمى ما نذهب إليه، في اللحظة الحالية، بأنه أزمة الديمقراطية، انكماش الثقة. نعتقد أن قياداتنا ليس فقط غبية وفاسدة، لكنها أيضا حمقاء. الفعل يستلزم القوة لتتمكن من اتخاذ القرارات. وبالطبع، نحتاج السياسة، التي تعطيك القدرة لتقرر ما تحتاجه». ومن كان عليهم أن يمارسوا السياسة توجهوا إلى وسائل التواصل الاجتماعي، الذي يعتبره باومان «مجرد فخ»، بحيث نعتقد أننا ننتمي إليه، لأنه يمنحنا السلطة في حذف هذا أو ذاك من قائمة الأصدقاء، أو السلطة في إضافة هذا أو ذاك. في حين أن الصداقة أبعد ما تكون، وأن تختزل في «وخز الفأرة». الصداقة لقاء والتقاء، شعور وتعبير، تبادل وتفاعل وانفعال، لأن هناك «قيمتين لطالما كان صعبًا التوفيق بينهما؛ الأمن والحرية. فإذا كنت تريد الأمن، فعليك أن تتنازل بقدر معين من الحرية. وإذا كنت تريد الحرية، فعليك أن تتنازل بقدر معين من الأمن. هذه المعضلة ستستمر إلى الأبد». فالصراع الدائر الآن، يتمحور حول علاقة الفرد بالمجتمع، ولم يعد يتعلق الأمر بنقص الأمن، بل بنقص الحرية. فالأمن توفره كل العدسات المحيطة بك من كل الجهات، وأحيانا من حيث لا تعلم. وهذا ما يضفي على سؤال الهوية بعدا جديدا: «سؤال الهوية تبدل، من شيء تولد به إلى مهمة، والمهمة تكمن في أنه ينوجب عليك صنع مجتمعك الخاص»، مجتمع تنتمي إليه لا أن ينتمي إليك، كما هو حال مواقع التواصل الاجتماعي. فأية علاقة تربط بين المجتمع والفرد ومواقع التواصل الاجتماعي؟ الفرد جزء من المجتمع، ولا يستطيع الفكاك منه ولا تعويضه بشبكات التواصل الاجتماعي أو عالم التقنية (العبودية الرقمية)، في حين أن الشبكات الاجتماعية هي جزءٌ من الفرد وتنتمي إليه.

تكمن إذن راهنية فكر وفلسفة ريغمونت باومان في تلمسه لموضوعات العصر بعين فاحصة وناقدة، تشهد عليها تجربته السياسية والفلسفية، بحيث لم يستطع الاتحاد السوفياتي ولا الشيوعية البولونية، ولا كبر سنه من مواصلة نقده للحاضر لاستشراف المستقبل المشرق.

× كتب المقال قبل رحيل الفيلسوف باومان

عن الشرق الاوسط

سيولة «باومان» التي أبتلعت كل شيء

محمد السيد أبو ريان

بدأتُ أفهم أنني لم أكن أفهم حقًا ما يحدث في العالم «الذي ليس بعالمي». إن ما يحدثُ هو على درجة من التعقيد أكبر من أن نفسّره بتلك الطريقة البسيطة المريحة، التي نتخيل من فرط سذاجتنا أنها طريقة كافية.

ربما يمكننا فهم هذا التعبير المنقّح لعالم الاجتماع البولندي «زيجمونت باومان»، باعتباره مدخلًا لفهم رحلته الإنتاجية فكريًا ونقديًا. يصرّ باومان أن يشتبك في أطروحاته دائمًا مع كل ما يدور حولنا في السياسة والاجتماع والعلوم والفكر والدين، وسائر الممارسات الإنسانية، بل والإنسان ذاته، بتنويعات أسئلته الوجودية والمعرفية والقيمية الكبرى، وتفاصيلها، وما يؤثر فيه وما يتأثر به.

ولد باومان في بولندا سنة ١٩٢٥م، لأسرة يهودية فقيرة، وتشكّل وعيه السياسي والفكري بعد الحرب العالمية الثانية، واشتبك مع الشيوعية في بولندا، ثم مع القومية والصهيونية في إسرائيل في الفترة القصيرة التي قضاها فيها، قبل أن يستقر في بريطانيا ويشكّل معالم مشروعه النقدي للحداثة الغربية ونزعتها القومية العنصرية.

فيما يلي نستعرض أهمّ مؤلفات باومان المترجَمة للعربية، والتي يتجلّى فيها مكابدته لفهم الحداثة، وممارسته لنقدها وتفكيك قوالبها السائدة في الوقت ذاته.

لم تكن الهولوكوست انقطاعًا في التدفق الطبيعي للتاريخ، أو ورمًا سرطانيًا ينهش في جسد المجتمع المتحضر، أو جنونًا لحظيًا بين سلامة العقل وصحته، لم تكن مجرد مأساة حدثت لليهود، واليهود وحدهم، لم تكن الهولوكوست مجرد مشكلة يهودية، وإنما هي مشكلة المجتمع الغربي والحضارة الغربية والثقافة الغربية، بل ونتاجها الشرعي العقلاني الطبيعي المخيف.

يجادل «زيجومنت باومان» عن هذه التأكيدات التأسيسية في كتابه «الحداثة والهولوكوست»، شارحًا ومحللًا لحقيقة أن الهولوكوست جاءت محصلة لقاء فريد غير متوقع بين تناقضات قديمة تجاهلتها الحداثة واستخفت بها أو فشلت في حلها، وبين أدوات قوية للفعل العقلاني الرشيد صنعها التطور الحديث.

في إطار المشروع الحداثي، يتحول المجتمع إلى بستان، والدولة القومية الحديثة إلى بستاني يسخر أدواته لأعمال البستنة، وتهذيب النباتات، ومواجهة كل من يخالف النظام، ومن ثمّ شنّت الحداثة حربًا ضارية على كافة مظاهر الاختلاف والخصوصية الثقافية. كان يحدث هذا للملونين – بكل أريحية وبلا غضاضة – على يد المستعمر الأبيض في أي مكان خارج إطار الحضارة الغربية، المختلف هذه المرة فقط أن الهولوكوست حدث لرجال أوروبيين بيض على أيدي رجال أوربيين بيض في عقر دار الحضارة الأوروبية الغربية، وهو ما لا يسوّغ عملية الفصل والأيقنة التي تجري للهولوكوست، واعتبارها نشوزًا عن السياق الطبيعي للحداثة.

يعتبر هذا الكتاب هو الثاني من بين ثلاثية أصدرها باومان كنماذج مطوّرة لنقد الحداثة الغربية، وهي (أهل التشريع وأهل التأويل ١٩٨٧م، الحداثة والهولوكوست ١٩٨٩م، الحداثة والإبهام ١٩٩١م)، وأصدره باومان بعدما قرأ مذكرات زوجته جانينا عن تجربتها في جيتو وارسو، وما تلاها، وهدف منه إلى حشد الدروس السياسية والنفسية والسوسيولوجية الخاصة بالهولوكوست من أجل تأسيس علاقة بينها وبين الوعي الذاتي والتجربة الفعلية لمؤسسات المجتمع المعاصر وأبنائه. ونال عليه جائزة أمالفي الأوربية في علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية، وجائزة تيودور أدورنو عام ١٩٩٨م، وترجمه للعربية حجاج أبو جبر، عبر دار مدارات، في ٢٠١٤م.

إن ما نعتبره واضحًا جليًا هو أبعد شيء عن أن يكون كذلك، وإنما توهّمنا وضوحه من طول تكرار استخدامه بصورة سيئة وغامضة. «الحرية» هكذا، أمرٌ افتراضيّ غامض مبهم محيّر، نادر التحقّق بصورة واضحة نسبيًا. تحظى مفردات كالضوابط والقيود والضغوط والمؤثرات والقوة والقسر والإكراه، بالوضوح والعمق والتحقق والاهتمام.

يتناول زيجمونت باومان في هذا الكتاب مفهوم «الحرية»، من مدخل اجتماعي، باعتبار علم الاجتماع في بداياته الأولى هو علم «عدم الحرية»، والذي يتجه لاحقًا إلى طرح ودراسة مفاهيم مثل: الطبقة والقوة والهيمنة والسيطرة والسلطة والتنشئة الاجتماعية والأيديولوجيا والثقافة والتربية... في سياق تشكيل الخريطة السوسيولوجية للوجود الإنساني.

حرية الإنسان لا يمكن أن تكون مجرد افتراض مسلّم به، ولا يجب، فقد توجد أو تختفي مع نوع معين من المجتمعات. والحرية ليست خاصّية أو صفة مميزة يمتلكها الفرد نفسه بقدر ما هي علاقة اجتماعية تتخذ صفة وثيقة الصلة بالاختلاف المؤكّد بين الأفراد، كشرط ضروري ومتجدّد للتكامل المجتمعي.

ينتظمُ كتاب «الحرية» – الذي ترجمته د. فريال حسن خليفة – ترجمة نرى أنها متوسطة المستوى – ونشرته مكتبة مدبولي – في مقدمة وخمسة فصول: (١) الحرية كعلاقة اجتماعية، (٢) عن الأصل الاجتماعي للحرية، (٣) مكاسب الحرية وكلفتها، (٤) الحرية والمجتمع والنظام الاجتماعي، (٥) مستقبل الحرية.

كتاب «الحداثة السائلة» من تأليف عالم الاجتماع والفيلسوف البولندي «زيجمونت باومان»، الصادرة ترجمته بالعربية في ٢٠١٦م، عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بترجمة حجّاج أبو جبر، يحتل الكتاب المرتبة الثالثة في سلسلة الفقه الإستراتيجي، وهي سلسلة تُعنى بالأطروحات الفكرية الهادفة إلى ربط الجسور بين العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية، وفهم الواقع المعاصر بأبعاده المركبة، وتقدم محاولة في إعادة ترسيم خرائط العلوم، وسبقه من نفس السلسلة كتابان هما «نحو عمران جديد» للدكتورة هبة رءوف عزت، و«فقه الواقع في التراث السياسي الإسلامي» للباحث مدحت ماهر الليثي.

في هذا الكتاب، يسعى باومان إلى «فهم زمن متغيّر» انتقلت فيه المجتمعات المعاصرة من الحداثة «الصلبة» إلى الحداثة «السائلة»، داعيًا إلى إعادة النظر في المفاهيم والأطر المعرفية المستخدمة لرواية تجربة فردية الإنسان والتاريخ المشترك، وذلك عبر خمسة مفاهيم أساسية انتخبها باومان، ووزّعها على خمسة فصول داخل الكتاب، باعتبارها تصوغ معنى الحياة المشتركة للإنسان: التحرّر، الفرديّة، الزمان/المكان، العمل، والمجتمع.

يُعد الكتاب مرجعًا محورًا في توثيق وقائع تلك السنوات التي تجلّت فيها فكرة الجمهورية، وعلاقتها المباشرة بالثورة المصرية، وهو يجمعُ بين العرض التاريخي والتحليل الاقتصادي والسياسي والثقافي، بالإضافة للمصادر المتنوعة من مختلف التيارات.

كتاب «الحياة السائلة» يأتي من جملة مؤلفات باومان في الإطار السسيولوجي والحداثي، تُرجم إلى العربية في ٢٠١٦م، عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، وترجمه حجّاج أبو جبر، ويقع ترتيب الكتاب في المرتبة الرابعة ضمن سلسلة الفقه الإستراتيجي.

يستعرض باومان في هذا الكتاب، تجليات الحداثة في أحوالنا اليومية، في خياراتنا الحياتية، في مشاعرنا، وفي رؤيتنا لما يمرّ بنا من أزمات. وكما في نبذة الناشر «هذا الكتاب هو كتاب عن العيش في عالم حديث سائل، إنه كتاب عن حصار الفرد من قِبَل كل الأحوال التي تمنّيه بالحرية... حيث تهبط المعاني في ظل الحياة السائلة من سموّها لتسكن دائرة السوق وتغدو سلعًا».

ينتظمُ الكتاب في مقدمة عن العيش في عالم حديث سائل، ثم سبعة فصول: (١) الفرد تحت الحصار، (٢) من الشهداء إلى الأبطال، ومن الأبطال إلى المشاهير، (٣) الثقافة خارج السيطرة والإرادة، (٤) البحث عن مأوى في صندوق باندورا، (٥) المستهلِكون في مجتمع حديث سائل، (٦) تعلّم السير على رمال متحرّكة، (٧) التفكير في أزمنة مظلمة: أرندت وأدورنو من جديد.

كتابُ «الحب السائل: عن هشاشة الروابط الإنسانية»، الصادر عن الشبكة العربية في هذا العام ٢٠١٦. يحلّل باومان في هذا الكتاب خيارات الفرد الشخصية (العاطفية والجنسية) في زمن الحداثة السائلة، التي تخلّت فيه الحياة عن جذورها، متتبعًا صيغ البحث عن الفائدة والخيارات الرشيدة، وكيف دُمّر ما تتسم به العلاقات الوجدانية من ديمومة وعفوية وتلقائية وعاطفية، وذلك عبر رحلة تبدأ من الفلسفة لتدخل في صلب الاجتماع، وتنتهي بالسياسة.

ينتظم الكتاب في أربعة فصول: (١) الوقوع في الحب والخروج منه، (٢) دخول العلاقات الاجتماعية والخروج منها، (٣) "أحبب جارك كما تحب نفسك" وصية صعبة، (٤) تفكيك الاجتماع البشري.

كتاب «الأخلاق في عصر الحداثة السائلة»، لزيجمونت باومان، صدرت ترجمته العربية عن مشروع «كلمة»، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ٢٠١٦م، بترجمة سعد البازعي وبثينة الإبراهيم، وكان باومان نشره أول مرة في ٢٠٠٨م.

يستقرئ باومان في الكتاب عددًا من الظواهر الكبرى للعالم الحداثي المعاصر، محورها هو الشأن الأخلاقي المتأثر بسيطرة الاستهلاك في عالم سريع التغيّر على كافة المستويات، تتغيّر فيه القيم والهويات والحدود السياسية، وتفقد الحواجز الأصيلة تأثيرها وأهميتها، سواءً من خلال تدفق رأس المال أو تحرّك المهاجرين أو البحث عن الربح السريع في شبكات الاتصال.

ينتظم الكتاب في مقدّمة، وست فصول: (١) أي فرصة للأخلاق في عالم استهلاكي معولَم؟ (٢) القتل الباتر أو إرث القرن العشرين وكيف نتذكره، (٣) الحرية في حقبة الحداثة السائلة، (٤) حياة عجولة: تحديات الحداثة السائلة للتعليم، (٥) بين الرمضاء والنار أو الفنون بين الإدارة والأسواق، (٦) جعل الكوكب مضيافًا لأوروبا.

كتاب «الأزمنة السائلة: العيش في عصر اللايقين» الصادر ترجمته عن العربية في ٢٠١٦م، مؤرّخة بالعام ٢٠١٧م، عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، وترجمه حجّاج أبو جبر، وتقديم هبة رؤوف عزت.

وبحسب نبذة الناشر، فهذا الكتاب يعدّ نصًا يملك من القدرة التفسيرية ما يجعله مناسبًا لفهم تحولات كثيرة يمرّ بها عالمنا الراهن، الذي لم تعد تقسيماته الجغرافية دالّة، بمثلما باتت التقسيمات الثقافية والاقتصادية، على محكّات الغنى والفقر والاستكبار والاستضعاف، هي الأكثر مركزية.

ينتظمُ الكتاب في مدخل عن «مستنبت اللايقين»، وخمس فصول: (١) الحياة الحديثة السائلة ومخاوفها، (٢) حركة الإنسان الدائبة، (٣) الدولة والديمقراطية وإدارة الخوف، (٤) معًا ولكن فرادى، (٥) اليوتوبيا في عص اللايقين.

الفرد الحرّ حرية طبيعية ما هو إلا نوع نادر وظاهرة محلية... وهو أبعد من أن يكون حالة عالمية أو حالة كلية للنوع الإنساني.

كتاب «الخوف السائل» يأتي سادسًا ضمن مجموعة باومان عن السيولة في عالم الحداثة، الصادرة ترجمته العربية في ٢٠١٦م، والمؤرّخة بالعام ٢٠١٧م، عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، وترجمه حجّاج أبو جبر، ليكوّن سلسلة متميزة قدمتها الشبكة العربية لقرّائها هذا العام.

ينتظم الكتاب في مقدمة عن أصل الخوف وديناميات واستخداماته، وستة فصول: (١) الخوف من الموت، (٢) الخوف والشرّ، (٣) الهلع مما لا يمكن إدارته، (٤) أهوال العولمة، (٥) إطلاق عنان الخوف، (٦) التفكير في مقابل الخوف: خلاصة غير نهائية للحيارى.

أخيرًا، تداول الناشرون مؤخرًا خبر نشر ترجمة كتاب باومان «المراقبة السائلة»، بحلول أوائل ٢٠١٧م. وهو ما يعني أن باومان ماض في رحلته النقدية للحداثة التي ابتدأها بتناول سيولة الحداثة ذاتها، والحياة بمجملها، ثم انتقل لاحقًا إلى تجليات هذه السيولة التي تبتلع كل شيء بما في ذلك الأخلاق والحب والخوف، وأخيرًا: المراقبة.

عن موقع إضاءات

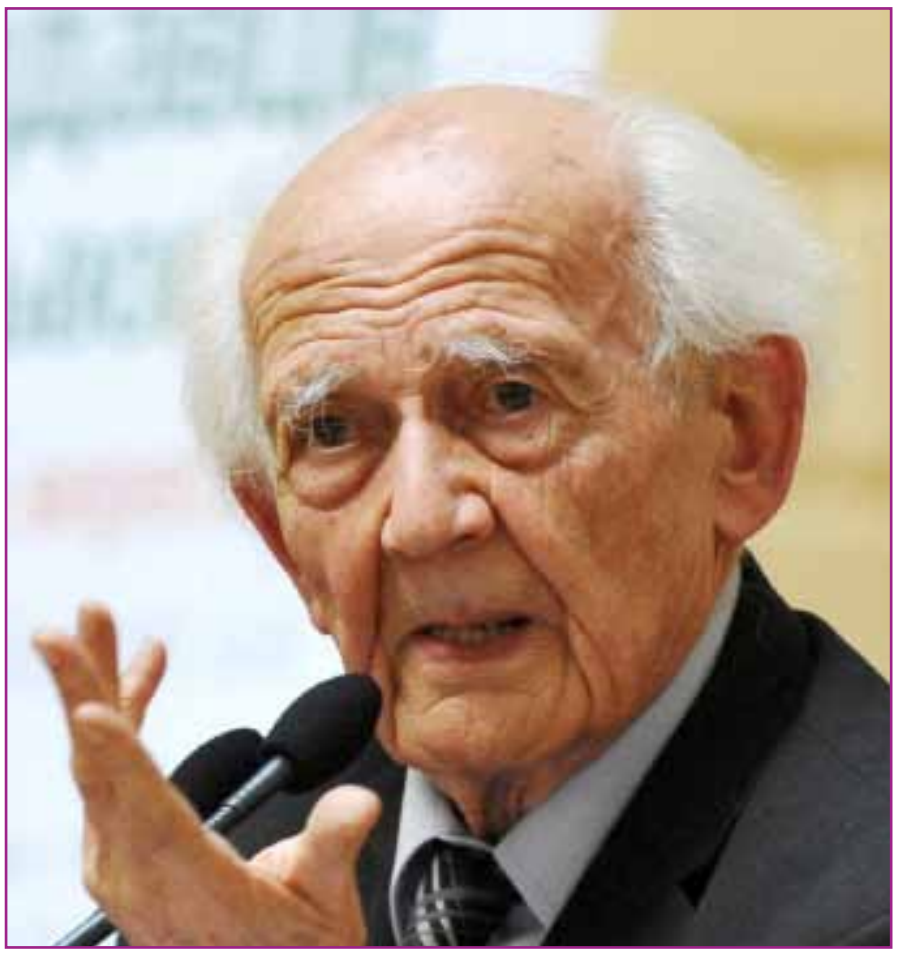

العالم كما يراه فيلسوف الحداثة السائلة

حوار مع السوسيولوجي الفيلسوف زيغمونت باومان

ترجمة: لطفية الدليمي

زيغمونت باومان Zygmunt Bauman) الذي توفّى قبل بضعة أسابيع) هو من غير شكّ واحد من أكثر علماء الاجتماع تأثيراً على مستوى القارة الأوروبية وعلى مستوى العالم كذلك ، وتشتمل قائمة كتبه - التي تُقرَأ في كل القارات - نحواً من ستين كتاباً واظب على نشرها بمثابرة واضحة منذ أن تقاعد عام ١٩٩٠ من عمله أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة ليدز البريطانية - ذلك الموقع الذي شغله على نحو مستمر لما يقارب الثلاثة عقود .

يُعرف عن باومان نحتُهُ لمفردة الحداثة السائلة Liquid Modernity التي تشير إلى الحالة المعاصرة لمجتمعنا الإنساني مع كل التحولات التي طالت أوجه الحياة فيه بطريقة غير مسبوقة : الحب ، العمل ، المجتمع ، السياسة ، السلطة ، المراقبة المجتمعية ، الهجرة ،،،، ، وتناول باومان في دراساته طيفاً واسعاً من الموضوعات تمتدّ من العلاقات الحميمة إلى العولمة ، ومن تلفزيون الواقع إلى حقيقة الهولوكوست ، ومن النزعة الاستهلاكية الطاغية إلى الجماعة البشرية. وقد توسّع باومان في كل دراساته تلك وجعلها تمتد خارج نطاق تخصّصه في الدراسات المجتمعية باتجاه حقول معرفية أخرى وبخاصة الفلسفة والسايكولوجيا .

وُلد باومان عام ١٩٢٥ لعائلة يهودية فقيرة في مدينة (بوزنان) البولندية ، وحصل أن كانت عائلته هي العائلة الأخيرة التي استطاعت اللحاق بالقطار المغادر إلى روسيا السوفييتية عقب الغزو الهتلري لبولندا في أيلول ١٩٣٩ ؛ وبذلك أفلتت عائلته من مصير مرعب كان سيحل بها بالتأكيد على يد السلطات النازية . صار بومان ماركسياً بعد وصول عائلته إلى الاتحاد السوفييتي وقاتل في صفوف الجيش الأحمر ، وبعد أن عاد إلى بلده بولندا خدم كضابط سياسي في قوات الأمن التي عُهدت لها مطاردة معارضي النظام ، ثم خدم بعدها في صفوف الاستخبارات العسكرية السرية حتى عام ١٩٥٣ . ترك باومان صفوف الحزب الشيوعي البولندي ؛ الأمر الذي تسبب بخسارته لمنصبه كأستاذ في جامعة وارشو عام ١٩٦٨ ، ثم انتهى المطاف به مهاجراً إلى بريطانيا حيث أصبح أستاذاً في جامعة ليدز حتى تقاعده أوائل تسعينات القرن الماضي .

) الثعلب يعرف الكثير من الأمور ؛ أما القنفذ فيعرف أمراً واحداً كبيراً) : هذا ماقاله مرة الشاعر الإغريقي أركيلوكوس ؛ لذا ، وفي هذا السياق ، فإن باومان يمكن أن يُعدّ قنفذاً وثعلباً في الوقت ذاته طبقاً للتصنيف الشهير للكُتّاب والمفكرين الذي بشّر به (إشيا برلين) ودعمه طوال حياته : باومان ليس رجل تفاصيل أو إحصائيات أو مسوحات أو حقائق صلبة أو استطرادات معرفية ؛ بل هو أقرب إلى رسّام يرسم بفرشاة عريضة على لوحة كانفاس مثيراً النقاشات والمناظرات المحتدمة مع اقتراحه لافتراضات جديدة غير مسبوقة . ومع هذا الطيف المنظوري الواسع لأعماله فليس ثمة حقل - تقريباً - في ميدان الإنسانيات أو العلوم الإجتماعية لم يقل فيها باومان كلمته أو يكتب شيئاً بشأنها ، وقد قال هو ذاته يوماً وهو يصف حياته : " قضيت حياتي كلها في تدوير المعلومات ودراستها « .

في منتصف وأواخر التسعينات من القرن الماضي اتّخذت كتب بومان منحىً آخر وبدأ يتحدث عن موضوعين منفصلين لكن ثمة علاقة بينهما : الاستهلاك وما بعد الحداثة . يتحدث بومان عن تحول المجتمع في أواخر القرن العشرين من مجتمع منتج إلى مجتمع مستهلك - هذا التحول (كما يرى بومان وعلى عكس ما قال به فرويد) ناجمٌ عن مقايضة التطور : عُطّلت الحماية من أجل الاستمتاع بأقصى درجات الحرية - حرية الاستهلاك ، حرية الإستمتاع بالحياة . كتب بومان في كتبه (أوائل تسعينات القرن الماضي) عن هذا التحول من الحداثة إلى ما بعد الحداثة ، ومع دخول الألفية الجديدة لوحظ أن بومان يحاول تجنّب الفوضى المحيطة بمصطلح (ما بعد الحداثة) بأن يستخدم مجازاً الحداثة الصلبة والحداثة السائلة .

توفي باومان في منزله بمدينة ليدز يوم ٩ كانون الثاني (يناير) ٢٠١٧ ، وقد نشر العشرات من الكتب والبحوث ، ويمكن أن نشير إلى الكتب التالية التي لقيت شهرة عالمية واسعة (وقد ترجم بعضها إلى العربية):

- الحداثة والازدواجية ، ١٩٩١ .
- Modernity and Ambivalence ، ١٩٩١
- النتائج الإنسانية للعولمة ، ١٩٩٨
- Globalization: The Human Consequences ، ١٩٩٨
- الحداثة السائلة ، ٢٠٠٠ .
- Liquid Modernity ، ٢٠٠٠
- الحب السائل : في هشاشة العلاقات الإنسانية ، ٢٠٠٣ .
- Liquid Love: On the Frailty of Human Bonds ، ٢٠٠٣
- الحياة السائلة ، ٢٠٠٥ .
- Liquid Life ، ٢٠٠٥
- أزمان سائلة : العيش في عصر اللايقين ، ٢٠٠٦ .
- Liquid Times: Living in an Age of Uncertainty ، ٢٠٠٦
- فنّ الحياة ، ٢٠٠٨ .
- The Art of Life ، ٢٠٠٨
- الثقافة في عالم سائل حديث ، ٢٠١١ .
- Culture in a Liquid Modern World ، ٢٠١١
- غرباء على بابنا ، ٢٠١٦

- Strangers at Our Door ، ٢٠١٦

الحوار التالي منشور أصلاً بالألمانية في مجلة Das Magazin وكذلك بالإنكليزية في مطبوعة ٠٣٢C (العدد ٢٩ المنشور في مطلع ٢٠١٦) ، ويُلاحظ في هذا الحوار توزّعه على معظم المحاور التي عمل عليها باومان في كتاباته الكثيرة ؛ الأمر الذي يجعل من هذا الحوار ذا أهمية استثنائية في معرفة الخطوط العامة لفكر باومان لمن لم يقرأ أعماله الأصلية .

مهّد المحاور (بيتر هافنر) لحواره المعمّق مع باومان بهذه العبارات التقديمية التي تصف شيئاً من صفات باومان الشخصية :

(... لم يفقد باومان وهو بعمر التاسعة والثمانين أي قدر من شغفه المعهود بالقضايا العالمية المهمة ، ولايزال قادراً على إدهاشي زائريه وبث الفكاهة بينهم من خلال العديد من النكات (الفاحشة !) التي تتقاطع تماماً مع الأجواء الكئيبة التي توحي بها رؤيته للمستقبل في ثنايا كتبه العديدة . يلحُّ باومان - كأي أوروبي شرقيّ حتى النخاع - على ضيوفه بأن يتناولوا فطائر الفراولة ، والحلويات ، وثمار العنب الموضوعة على طاولة القهوة أمامه والمحاطة بأعمدة من الكتب . جلس باومان على مقعده (الذي بَلِي جلده) والغليون في يده ، وراح يأخذ كفايته من الوقت في الإجابة على أسئلتنا - تلك الإجابات التي نحتاج إليها كثيراً لأننا نريد أن نعرف ماالذي تعنيه الحياة ؟).المترجمة

المحور الأول : الحبّ

× بروفسور باومان ، دعنا نبدأ مع الأمر الأكثر أهمية في حياتنا : الحب . تقول دوماً أننا بتنا ننسى كيف نحبّ . ما الذي دفعك لهذا الاستنتاج ؟

- إن نمط إيجاد شريك على الشبكة العالمية (الإنترنت) بات شيئاً مماثلاً لنمط التسوّق الالكتروني . أنا شخصياً لاأحبذ الذهاب إلى المحال بنفسي بل أشتري معظم الأشياء عبر التسوق الالكتروني : الكتب ، الأفلام ، الملابس . إذا ما أراد أحدٌ ما شريكاً فإن مواقع المواعدة الإلكترونية ستُريه قائمة (كاتالوغاً catalog) - وهنا يكمن ما أريد قوله فيما يخصّ سؤالك : نمط العلاقات بين المستهلكين والبضائع صار مماثلاً تماماً لنمط العلاقات بين الشركاء الإنسانيين ! .

× كيف يختلف هذا الأمر مع الأزمان السابقة حيث كان الشركاء المستقبليون يلتقون ببعضهم في الأسواق الخيرية القروية أو الاحتفالات المدينية ؟

- المواعدة الإلكترونية تنطوي على محاولة لتعريف الخواص الاستثنائية المميزة التي تعكس بأفضل مايمكن توق الشريك المنتظر ورغباته ؛ إذ في العادة يتم إختيار الشركاء المرشّحين تبعاً لإعتبارات الشعر ، أو لون الجلد ، أو الطول ، أو الشكل العام ، أو حجم الصدر ، أو العمر ، أو الرغبات والهوايات ، أو الأمور المحبوبة والمقوتة . إن الفكرة الكامنة وراء هذه الاعتبارات هي أنّ الشخص المعنيّ بالحبّ (أي الشريك المفترض) يمكن تجميعه من جملة مواصفات جسدية أو اجتماعية قابلة للقياس ، وفي خضمّ تلك العملية يتمّ نسيان البعد الأكثر أهمية بين كل هذه الاعتبارات - الشخصية الإنسانية ذاتها .

× ولكن حتى لو تمّ الحصول على تعريف كامل للصورة المثالية لمن نريده شريكاً فإن كل شيء يبقى عرضة للتغيير متى ماتقابلنا مع ذلك الشريك وعرفناه عن قرب ، وحينئذ يمكن القول أن ذلك الشريك هو أكبر بكثير من مجموع صفاته الخارجية (التي تقيسها تلك الاعتبارات؟).

- الخطورة العظمى في ذلك النمط من العلاقات هي أنها باتت تتماثل مع الطريقة التي نتعامل بها مع الموجودات الدنيوية التي ننتظر من ورائها منفعة مؤكدة : نحن في العادة - مثلاً - لانتعهّد بتكريس شغفنا الكامل بكرسيّ ما ؛ إذ ليس ثمة من مسوّغ يجعلني أتعهّد بإبقاء ذلك الكرسي في عهدتي حتى يوم مماتي ، ومايحصل في العادة هو أنني متى مالم يعد الكرسي ملائماً لي فإنني أبتاعُ واحداً غيره . تلك ليست بالعملية الواعية بل صارت الطريقة التي تعلّمنا أن نتعامل بها مع العالم والكائنات الإنسانية الأخرى .

× أراك تريد القول أن الشركاء ينفصلون عن بعضهم قبل أن تنضج علاقة الحب بينهم ؟

- نحن ننغمر في أجواء العلاقات لأنها تَعِدُنا بالرضا والسعادة ، وعندما نشعر أن شريكاً جديداً يمكن أن يكون مصدر سعادة ورضا أعظم من شريك قبله فإننا نبطل علاقتنا القديمة لنخوض واحدة جديدة . لنلاحظ أن البدء بعلاقة جديدة يتطلّب موافقة شريكين ؛ في حين أن فضّ شراكة قائمة يتطلّب رغبة شريك واحد فحسب ، وبالنتيجة سيعيش الشريكان في خوف دائم من إمكانية إقدام الشريك المقابل على فض الشراكة من جانبه ورميه جانباً مثل سترة عتيقة باتت لاتتلاءم مع الموضة السائدة .

× وهذا خطلٌ في النظرة المفاهيمية السائدة كما أوضحتَ ذلك في كتابك (الحبّ السائل) : كتابك المختصّ بالصداقة والعلاقات؟

- تلك هي معضلة الحب السائل : نحتاج في العادة - خلال الأوقات العصيبة - الأصدقاء والشّركاء الذين لن يخذلونا ولن يجعلونا نسقط أرضاً منكفئين على وجوهنا ، والذين سيقفون بجانبنا وقت الحاجة دوماً . إن الرغبة في الاستقرارية والتماسك واحدة من أهم الرغبات في الحياة ، وإن قيمة الستة عشر بليوناً (من الدولارات) التي يُقدّر بها موقع الفيسبوك Facebook منبثقة من حاجتنا لئلا نبقى وحيدين ، ولكن من جانب آخر نحن نفزع من الشعور بالالتزام تجاه أي فرد بما يجعلنا مقيّدين به والخوف يتلبّسنا من إمكانية فضّ علاقته بنا (في أي وقت يختاره هو لانحن) . نتوق إلى ملاذ آمن لنا في الوقت الذي نريد أن نبقى أحراراً تماماً من كل اعتبارات مقيّدة .

× نعرف أنك بقيت متزوجاً بامرأة واحدة (جانينا ليوينسن) لستّين عاماً حتى توفيت عام ٢٠٠٩ . ما الذي يصنع الحب الحقيقي حسب رأيك ؟

- أرى الحب الحقيقي في الحقائق التالية : المتعة المُراوغة (والطاغية أيضاً) لـ (أنتَ و أنا) عندما يصبَحان واحداً ، السعادة العُظمى التي تغمر بها حياة شريكك وتصنع علامة فارقة في حياته حتى لو كان صنيعك لايعني الشيء الكثير لك أنت ، أن يشعر شريكك دوماً بأنك موضع حاجته الدائمة وأن مامن بديل لك في حياته - هذه كلها أمور تبعث البهجة المنعَشة في نفس المُحبّين ، وهي أمور عصية على التحقق عندما نكون غارقين في حدود أنوياتنا الذاتية المعزولة التي تتحرّك طبقاً لدوافع مصالحنا الشخصية وحسب.

كيف أوقعت بنا وسائل التواصل الاجتماعي؟

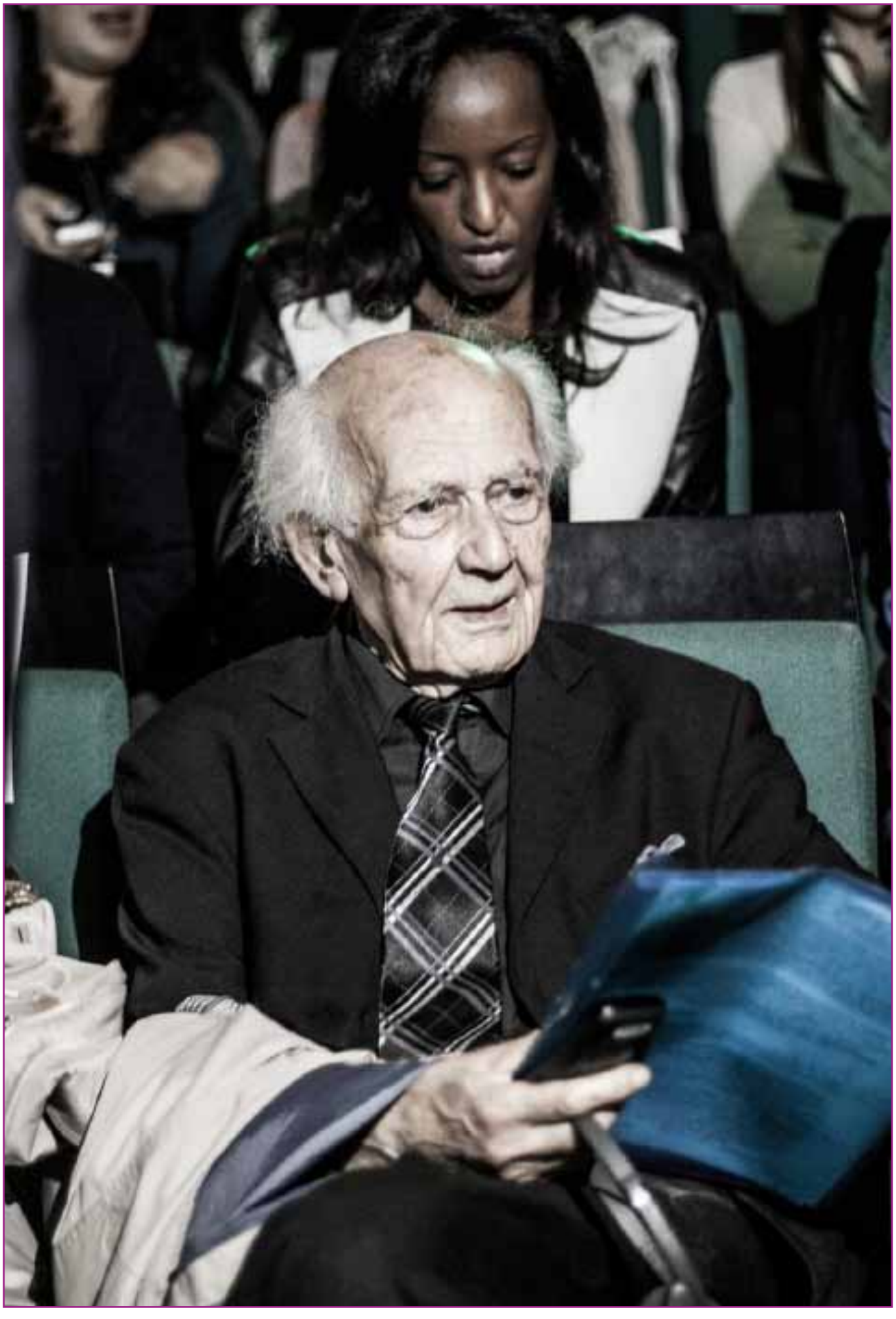

ترجمة:حورية عمر موسى

باومان عالم اجتماع بولنديّ حظي بشهرة واسعة بعد صدور كتابه: الحداثة السّائلة، يندد فيه بالحقيقة القائلة أنّ فلسفة ما بعد الحداثة قد أدّت إلى انهيار "الصلابة". فاليوم لا مكان للمفاهيم الصلبة والثابتة، إنّ كل ما حولنا مؤقت وعابر ومتغيّر. من أهمّ دراساته: ظاهرة وسائل التواصل الاجتماعي، يحلل فيه ما طال علاقاتنا الاجتماعية وعواطفنا الإنسانيّة.

قدّم باومان تحليلًا دقيقًا للعالم المعاصر، ومنها ما قدمه حول الإنترنت و وسائل التواصل الاجتماعي التي يعرّفها بأنها فخّ إنسان العصر الحديث الذي لم يزَل يسقط به راضيًا سعيدًا، وهو ما تتناوله هذه المقالة.

يرى باومان أن "مؤسس شركة فيسبوك يتغذّى على خوف البشريّة من الوحدة!" هذا ما تشير له أرباح شركته التي تقدّر بـ $٥٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠، فعبقريّة مارك تكمن في إدراكه لمخاوف الإنسان الحديث، ففي العالم الافتراضيّ لا وجود للوحدة، هناك دومًا من يُبدي استعداده ليقرأ لنا وليشاركنا "اللايك" معربًا عن إعجابه ودعمه.

الفيسبوك كما يراه باومان هو بيت المرايا الذي تنعكس به صفحات الوجوه وتتردد به أصداء ما تود النفس سماعه، مما يغيب احتمالية قيام حوار ومشاركة إنسانيّة فعّالة.

بالإضافة إلى ذلك يأخذ تكوين وقطع العلاقات الشبكيّة ضغطة زر، لتسود أنماط علاقات خفيفة العبء والكلفة، وحوارات تأخذ شكل تفاعلٍ مكتوب، بخلاف العلاقات الحقيقيّة التي تتطلبُ قدرًا من المواجهة والتفاعل، ممّا يخلقُ وهم التواصل الإنسانيّ، إذ ليس إلا أصداء صوت وصورة خيال.

تعمل وسائل التواصل على الحدّ من الخصوصيّة فهي تدعونا لإظهار أنفسنا، لنحاول تقديم أليق صورة ليراها الآخرون، إنّه التجلي الأكبر لنزعات الإنسان الحديث، حيث مملكة أهوائه التي يديرها حاكم مُستبد يقرّر من يُقصي ومن يبقي.

لا مكان لتغييب الأنا، ما يحكم الأشياء هنا منطق الحضور والظهور والإفصاح لا منطق الخفاء والتخليّ، لتُحكم سيطرة المخيال الفيسبوكي المرغوب على وعينا، ممّا قد يسبب حالة من الإحباط في حال لم نبلغه.

يرى باومان أن لـ وسائل التواصل تأثيرًا حاسمًا في ثقافة العصر الحديث: والتي يسمّيها" بالثقافة السائلة" : فهي "كالفخّ" يصطاد عواطفنا وبقايانا الهشّة حيث تسود أنماط علاقات غير مستقرّة بلا أعباء أو مسؤوليّات، وأطياف أحاسيس تأتي اليوم لتنقضي غدًا.

تحمل هذه المواقع منافع شتّى إلا أنها تزيد من إحكام قبضتها يومًا بعد يوم لصالح الأنظمة السياسية والاقتصادية التي تسيء توظيف قواعد البيانات لتحقيق مآرب وغايات محدّدة.

عواقب هذا التوسع كما تلوح في الأفق ليست مبشرة، فتواصلنا الاجتماعيّ يأخذ صورة المونولوج على أن يكون حوارًا فعّالًا مثمرًا، بالإضافة إلى تمدّد العولمة مما يغوّل من نزعاتنا الفرديّة لصالح من يتحكمون بأنماط حياتنا.

عن موقع مجلة حكمة

مأزق التاريخ في مرحلة السيولة الزمنية

د. نادية هناوي

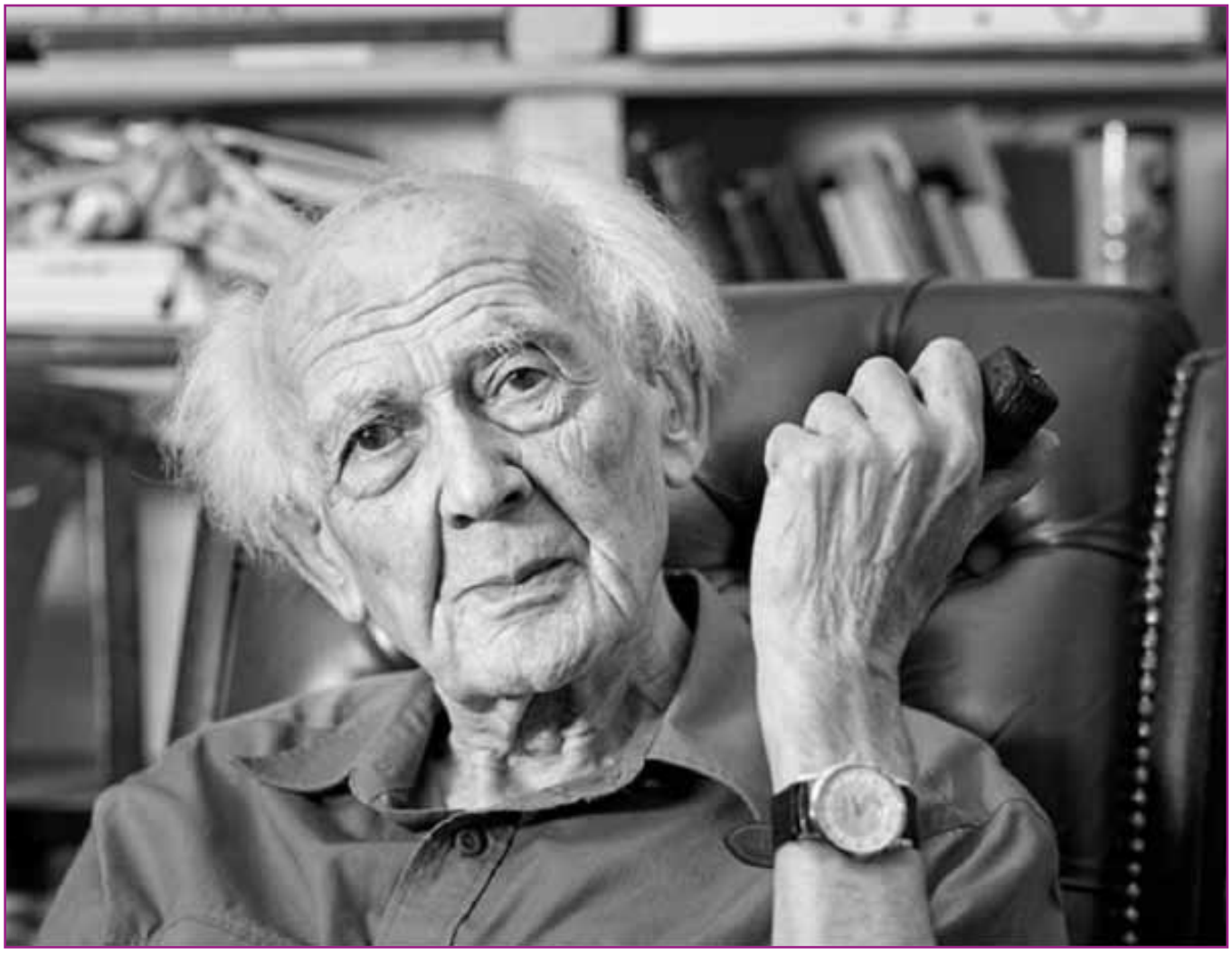

أراد سيجمونت باومان في نظريته للحداثة أن يجعلها ذات طابع فيزياوي ومضمون مائي، مفترضا أن الميوعة من سمات مرحلتنا الحالية

التي يراها مكانية تحتل حيزها في الوجود قابعة فيه من دون أن تعيقها زمانية تسير على هديها.

وإهمال باومان لفاعلية الزمن تعني إنهاء فعل التاريخ كون عملية الإذابة لا تتطلب سوى وجود بناء تحتي وفوقي ليتم تفكيكه وتحطيم قوالبه ومن ثم إعادة توزيعه مكانياً من جديد. وبهذا تكون السيولة والخفة والإذابة والصهر والتشابك والتلاحم هي الأسس الزمنية التي بها يتفكك الثابت الذي هو المكان وعندها فإن كل الثنائيات ستتلاشى.

لكن ما سبل تطبيق نظرية باومان عن سيولة الزمن أو الزمن السائل؟ والى أي المديات يمكننا النمذجة على ممكناتها الإجرائية ؟

والإجابة مهما تعددت فإنها ستظل مرهونة برؤية دوغماطية مفادها أن لا وجود لبديهيات ولا ثوابت في ظل الحداثة السائلة، فالزمن هو مجموع أزمنة والاجتماعي هو الأخلاقي والنمذجة هي اللااتباع والقالب يعني اللا قالب.

والسبب عدم ارتهان المادة بالشكل ومن ثم لن يكون لها مركز وهامش ولا أصل وتابع ولا دونية وفوقية. وقد يفضي هذا إلى مسألة أخلاقية خلافية لها صلة بعائمية التدفق في الزمن وحتمية جريانه ولا محدودية الروابط الاجتماعية والموانع والحدود الفكرية.. بما يثير القلق وربما الذعر لأن الإنسان بالفهم السائل أو بسيولة الفهم لن يعود مرتبطا بالأرض لكنه في الان نفسه غير قادر على الاستغناء عنها ومع أن الارض زائلة كما يرى باومان فهي قابلة لان تباع وتعرض في المزاد.

وهذا ما أوصله إلى القول بالالايقين وذلك في كتابه (الأزمنة السائلة) الصادر عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر ٢٠١٧ ، واللايقين عنده يعني الخوف ويشبهه باليوتوبيا الاستحالية حيث لا وجود لعالم موثوق وآمن، مشيرا إلى أن اليوتوبيا التي أطلقها بوجه عام توماس مور قاصدا بها أحلام القرن السادس عشر الميلادي ما عادت موجودة بعد أن تداعت أركانها بانهيار النظم الرتيبة القديمة السرمدية في ظاهرها.

وهكذا فأن اليوتوبيا ماض انتهى وما عاد هناك نعيم وإذا كان من جحيم فهو جحيم الحاضر الذي يعيشه الإنسان كل يوم ويسهم في إدامة تشكله مستقبلا.

وبسبب ذلك توجهت الحياة الراهنة نحو الانفتاح الذي هو عند باومان حسن وغير حسن فمن جانب هو نتاج ثمين وجرئ ومن جانب آخر هو هش وملفق، و " إذا كانت فكرة المجتمع المفتوح ترمز في أصلها إلى تقرير المصير لمجتمع حر يرعى انفتاحه فإنها في هذا الزمن تعني تجربة مفزعة لأناس يعانون من التبعية والعجز والبؤس" (الكتاب، ص٣١).

ويرى باومان العولمة في صورتها الحالية عملية طفيلية ومفترسة تتغذى على سلطة تمتصها من دماء الأمم / الدول ورعاياها وهي سلبية باحتوائها على دوائر الخوف والذعر الأمني وتعدد الأسواق والحرب على الإرهاب.

وتجره هذه الأفكار إلى وضع رؤية ناقمة على الرأسمالية، مدللا بما كانت روزا لوكسمبورغ قد استشرفته قبل قرن تقريبا وهي تشبيه الرأسمالية بالأفعى التي تتغذى على ذيلها..

وتستهوي باومان فكرة الأكل/ المعدة والمأكول /الذيل لينبي على هذا الاستشراف استقراء ماضويا وراهنيا معا فما نشهده اليوم من تقلص المسافة بين العولمة والرأسمالية وما شاع فيهما من الشركات متعددة الجنسيات والاندماج المعادي وبروز ظاهرة النفايات البشرية، هو تعبير عن سيولة الزمن وعدم ثباته، وعن ذلك يقول باومان: " إن إحدى التبعات الوخيمة ..للانتصار العولمي للحداثة هي الأزمة الحادة لصناعة التخلص من النفايات البشرية فكل قاعدة تغزوها الأسواق الرأسمالية ستضيف آلافا جديدة وربما ملايين إلى أعداد المحرومين من أراضيهم ومصانعهم وشبكات الأمان الجماعي" (الكتاب، ص٥٠).

ويتمثل هذا الفائض البشري أو ما يسميه النفايات البشرية في فئات المهاجرين واللاجئين، مقررا بتشاؤمية أن من أصبح لاجئا فانه يصير لاجئا إلى الأبد قاطعا طرق العودة إلى جنة الوطن المفقود أو الذي لم يعد موجودا.

وعلى الرغم من هذه الصورة القاتمة التي يرسمها باومان لهذه الفئة البشرية؛ فإنه يؤوب عائدا الى تأكيد حالة الاستمرار من خلال تقبل بلدان الهجرة لاستيعاب المهاجرين بغية دمجهم في الجسد الاجتماعي الجديد.

وهذا ما سيشرحه باومان بشكل أكثر جلاء وبتفصيلية لا تخلو من بعض التناقض في الفصل الذي حمل عنوان (معا ولكن فرادى) فمع تعددية الهويات والتنوع الثقافي في عصر العولمة ومع احتمال زيادة الاندماج لا نقصانه ستكون سيولة الزمن سببا في توترات ناجمة عن عدم ألفة المكان المحيرة والمربكة والتي ستستمر في تأجيج رغبات الانعزال والتمييز العنصري.

ويقارن باومان بين تاريخ ساد العالم عبر خمسة قرون من التهذيب الحضاري وبين ما صرنا نتحدث فيه عن تأخر أخلاقي وانهيار قيمي ومن ثم لم تتأصل لدينا مفاهيم الدولة والمجتمع والإنسان.

وهذا ما يعالجه زيجمونت باومان بشكل مستفيض في كتابه(الخوف السائل)، حيث الافتقار إلى الأمن واليقين لم يعد مجتمعيا بل هو شخصي أي الخوف من تحول الشخص إلى هدف وقع الاختيار عليه أو الخوف من التخلف عن ركب السائرين أو الخوف من الاستبعاد والإقصاء والخوف من العالم المليء بالمخاوف ..الخ.

ويقارن باومان بين حاضر يمثله تلفزيون الواقع، وماض يصل الى مسرحيات الأخلاق القديمة التي كانت تحقق الخلاص من المخاوف فيجد أن لا الحاضر ولا الماضي ينفعان في تخليصنا من الخوف.

أما الظن بأن المستقبل ممثلا بالتكنولوجيا والتي وضعنا آمالنا فيها سيكون بإمكانها أن تحبط أو تدمر تلك المخاوف وتمنحنا الأمان، فإن ذلك الإمكان يفنده باومان تفنيدا تاما لأن التكنولوجيا نفسها هي مصدر مضاف ورهيب للخوف.

إن باومان - وبسبب سيولة الزمن وعدم ثباته وما يرتبط بذلك من مشاعر مخيفة - لا يعيد فهم التاريخ وإنما هو ينفي وجوده ويدحض أهميته ليبدو التاريخ وكأنه في مأزق او بالاحرى مأزق الفهم اللاتاريخي حيث العالم يتألف من مجتمعات مفتوحة بالإكراه لا سبيل فيها إلى تحقيق الأمن إلا بعدم انفصالها عن بقية العالم.

ويطبق ذلك على الإرهاب والحرب عليه والإدانة الأخلاقية التي تعتمدها الإدارة الأمريكية في سياستها مع دول الخير ودول الشر، واصفا العولمة بالسرعة كنزعة تتجاوز زمنية التاريخ ماضيا وحاضرا ومستقبلا إلى لا زمنية الخضوع الديني ولا محدودية الانتماء الهوياتي، مفترضا أن كل شيء سهل الفهم بشكل جماعي سيجعل المجموع ميالا للإنصات لأصوات تمارس الغواية والقيادة. وفات باومان أن التقدم الرقمي والتسارع في الانفوميديا هي ايضا رهانات لا يخفى ما تولده من مخاوف تضاد الاندماج والتحاور والانفتاح التي هي من سمات مرحلتنا الثقافية الراهنة.

ويعطينا باومان صورة أكثر وضوحا حين ينقلنا إلى تودوروف وحديثه عن الإغراءات في ذكريات مارجريت نويمان شاهدة العيان على الرعب الشمولي في القرن العشرين. وأن حقيقة الخوف السائلة قائمة على أساس لا زمني فبمجرد أطلاق العنان لفئة قليلة من الانتحاريين سيكون كافيا تماما لإعادة تدوير آلاف من الأبرياء وتحويلهم إلى مشتبه بهم عاديين وهذه السيولة ستغدو راهنية أيضا في سلبية العولمة حين تجمع بين السلطة والسياسة تحت سقف الأمة/ الدولة وعندها ستغدو الدولة خادمة للاقتصاد العولمي.

ولأجل تحقيق الأمن الوجودي يقترح باومان أن نبحث عن مستقبل بديل تفرغ فيه فائض الخوف الذي لا بد أن نجد له منافذ طبيعية أو بدائل مؤقتة تنفس عنه. من ذلك ما يتعلق بمظاهر حياتية يومية من قبيل اجتناب التدخين السلبي والأغذية الدهنية وإلا فان الخوف سيظل موجودا وستبدو وفرته وكأنها لا تنتهي وما الحرص على زيادتها إلا من باب إعادة بناء رأس المال السياسي المستنزف، وهكذا يكون أساس الكارثة هو اللاتاريخ .

ويضرب مثلا آخر على الخوف السائل متمثلا في ثقة المثقفين بالتاريخ وأنهم قادرون على تجسيد الكلمات وتحويلها إلى واقع من خلال وجود الطاغية المستنير الأمير الحكيم والداهية المستبد أو ما يسميه(الفاعل التاريخي) ليقوم بالمهمة عنهم وهو ما أداه لينين عندما تولى الحزب وقاد الجماهير المعذبة المقهورة.

والنتيجة التي يخرج بها باومان هي أن النخبة المثقفة المتجاوزة للتاريخ هي من ينبغي أن تتصدى للعولمة في القرن الحالي الذي يصفه بأنه زمن الكارثة الكبرى زمن إحياء عهد جديد بين المثقفين والشعب من خلال فكرة التهجين راجيا أن يكون الاختيار بين هذين المستقبلين ما زال بأيدينا، معبرا عن ذلك الرجاء بالصيرورة التي تعني أن ما من شيء إلى حد ما له انتهاء، وأن كل شيء سيحدث في المستقبل.

« زيجمونت باومان» .. ناقد إثراء الأقلية وإفقار الأكثرية

محمد طيفوري

عالم اجتماع من أصول بولندية، يحمل الجنسية البريطانية. يعتنق الديانة اليهودية، ويلتزم الماركسية كآيديولوجيا. بدأ حياته البحثية بالتأصيل للاشتراكية البريطانية، والدفاع عن الطبقات الاجتماعية ومساندة احتجاجات العمال، قبل أن يلمع اسمه بدءاً من تسعينات القرن الماضي، عندما تخصص في تفكيك العلاقة بين الحداثة والشمولية والعولمة.

كانت أطروحة نهاية "الهياكل المستقرة" في المجتمعات المعاصرة سببا في لفت الأنظار إليه، وبالأخص حين نعلم أنه استند في التأسيس لها على "محاورات" نقدية، تطرق فيها لأعمال ماركس وغرامشي وأنتوني جيدنز وروبرت كاستل وبير بورديو... وغيرهم، ما قاده إلى توليد أو بالأحرى نحت مفهومه عن "السيولة"، الذي استعاره من حقل الفيزياء، فمن المعلوم أن المواد السائلة تتميز عن المواد الصلبة بعدم قدرتها على الاحتفاظ بقوة التماسك بين مكوناتها في حالة السكون، وفي أنها لا يمكن أن تحتفظ بشكلها بسهولة.

أطلق الراحل عام ١٩٩٨ مفهوم "المجتمع السائل"، وهو مفهوم مجازي صار متداولا كثيرا في دراسات ما بعد الحداثة، أردفه بجملة من العناوين المهمة والمثيرة والمعبرة في الوقت ذاته؛ ترجمت إلى عشرات اللغات، من ضمنها: «الأخلاق في عصر الحداثة السائلة»، «الحياة السائلة»، «الحبّ السائل»، «الخوف السائل»، «الرقابة السائلة»، «ثراء الأقلية»، «الحرية»... تتقاطع أعماله في الموضوعات التي يتناولها، فنجد في زمرتها على سبيل المثال: العولمة، الحداثة وما بعد الحداثة، المادية الاستهلاكية، النظام الأخلاقي والحرية.. إلخ.

كان النقد حاضرا بقوة في كتابات باومان، فقد انتقد وبشدة شمولية الحداثة ونواتجها البشرية التي قايضت مطلب الأمن بمطلب الحرية. لدرجة وصفه البعض بالناقد الأكثر شراسة للحداثة ومجتمع الاستهلاك، بشكل خاص بعدما أبدى في السنوات الأخيرة من عمره الطويل خيبة أمله عن المآلات التي صرنا إليها، حينما تبين له أن ما نعيش فيه من سياسات ليبرالية جديدة، وفيض تكنولوجي عارم جعلا من وعد الليبرالية الجديدة بالثراء والوفرة للجميع مجرد وهم أو كذبة كبيرة.

يرى باومان في كتابه "ثراء الأقلية" (٢٠١٤) أن مفهوم "الإفقار"؛ في المجتمع غير المستقر أو السائل، يحتل مكانا مركزيا، وتعاني فيه أغلبية مضطهدة ومطرودة خارج جنة الليبرالية على حساب سعادة ورفاه الأقلية المحظوظة. يجادل في الكتاب ذاته بأن العالم يدفع الآن أثمانا باهظة نتيجة الثورة النيوليبرالية التى بدأت عام ١٩٨٠، وهذه الثروة تركزت فى أيدى الأقلية ولم ينعم بها بقية المجتمع، وهو ما اختصره في كوجيتو خاص به، شعاره: "أنا أقترض أنا موجود».

عودا إلى "السيولة" عماد أطروحة باومان، التي يربطها بالسرعة التي تعرفها كل مناحي الحياة، فالهوية في المجتمعات السائلة تفتقد، من وجهة نظره، لهياكل على درجة ما من الاستقرار، ولو المؤقت لا يمكنها أبدا أن تكون أمرا ناجزا أو نهائيا. بمعنى أن البديل الذي يحل محل "الهوية" بدلالتها الكلاسيكية، هو جماعات أو أسراب ذات ترابط ميكانيكي صرف، توفر شعورا واهما بالأمان.

ويعطي المثال الأبرز هنا بوسائل التواصل الاجتماعي الحديثة حيث تحل الأعداد الهائلة من الأصدقاء الافتراضيين محل الصداقة الحقيقية، ومشاركة القيم والتعاون الاجتماعي. ويحذر في كتابه «الأخلاق العمياء» (٢٠١٣)، الذي أصدره برفقة الكاتب ليونايدس دونسيكس، من أننا نفقد روحنا الجماعية نتيجة الغرق في عوالمنا الذاتية.

امتد التفكك بحسب باومان إلى كل مناحي الحياة السائلة، ففي المجال الثقافي مثلا يرى أن الزمن الذي كان فيه الذوق الرفيع أو المألوف علامة دالة على فئة اجتماعية معينة انتهى. بمعنى أن الاستناد لهذا المعيار بغية تمييز نخبة مثقفة؛ لها ميراث ذوقي وفن رفيع يجعلها تنظر بازدراء إلى المشترك العابر السريع، انتهى إلى الأبد.

لا يعني هذا أن لا وجود اليوم لنخبة مثقفة، بل على العكس يرى باومان أنها اليوم أكثر حيوية ونشاطا من أي وقت مضى، لكنها مشغولة جدا بمتابعة النجاحات الفنية والفعاليات الثقافية الشهيرة والجري وراء الميديا، بحيث لم يبق لديها الوقت لصياغة نماذج (مثالية) للاعتقاد، أو آليات جديد التفسير أو مقاربات نوعية للتغيير. باختصار "لم يعد هناك مثقفون متخصصون في مجالات تحتاج إلى بذل الجهد، بل ثمة مثقفون يلتهمون كل شيء».

لقد لخص بول فاليري، في وقت مبكر، جزءا من أطروحة باومان عندما قال: "الانقطاع والتفكك والمفاجأه في السمات العادية لحياتنا، بل صارت حاجات واقعية لكثير من الناس الذين لم يعد يغذي عقولهم أي شيء سوى التغيرات المفاجئة والمثيرات المتجددة علي الدوام...لم يعد بوسعنا أن نطيق أي شيء يدوم. لم نعد نعلم كيف يمكننا أن نفيد من الملل».

صفوة القول إن الحداثة غيرت مقومات العيش الإنساني، وأعادت تعريف الزمان والمكان لتمنحهما معاني أكثر اقترانا بالرأسمالية في مراحلها المتتالية، وبالتالي أعادت طرح أسئلة كبرى حول الإنسانية من قبيل: ماذا نعني بالإنسانية؟ وما خصائصها؟... وتتوالى لائحة الاستفهامات الحارقة التي ترك لنا الراحل مهمة البحث عن أجوبة لها.

عن موقع صحيفة « الاقتصادية »

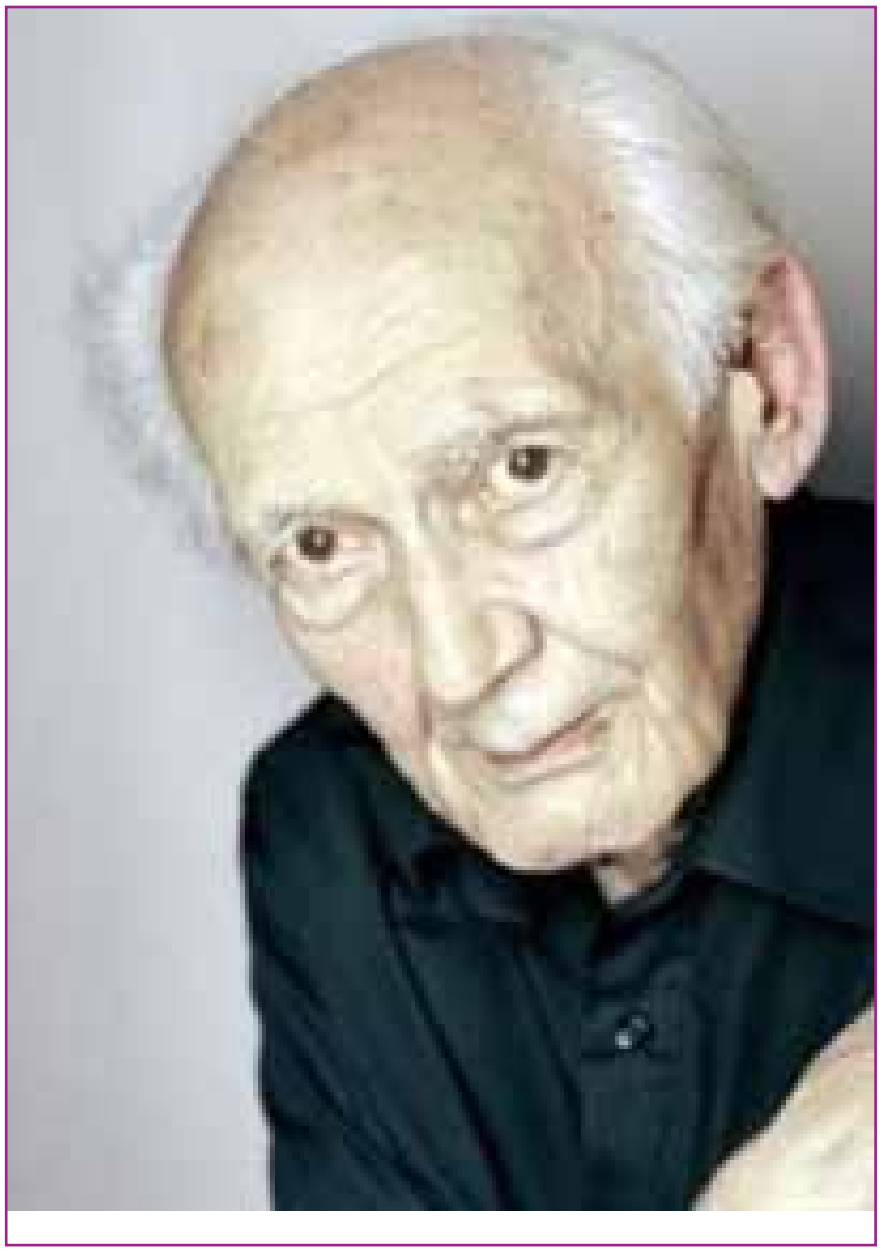

manarat
www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

منارات
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

سبيل للمرور في الجحيم.. قراءة في كتاب الأخلاق في عصر الحداثة السائلة

د. عقيل عبد الحسين

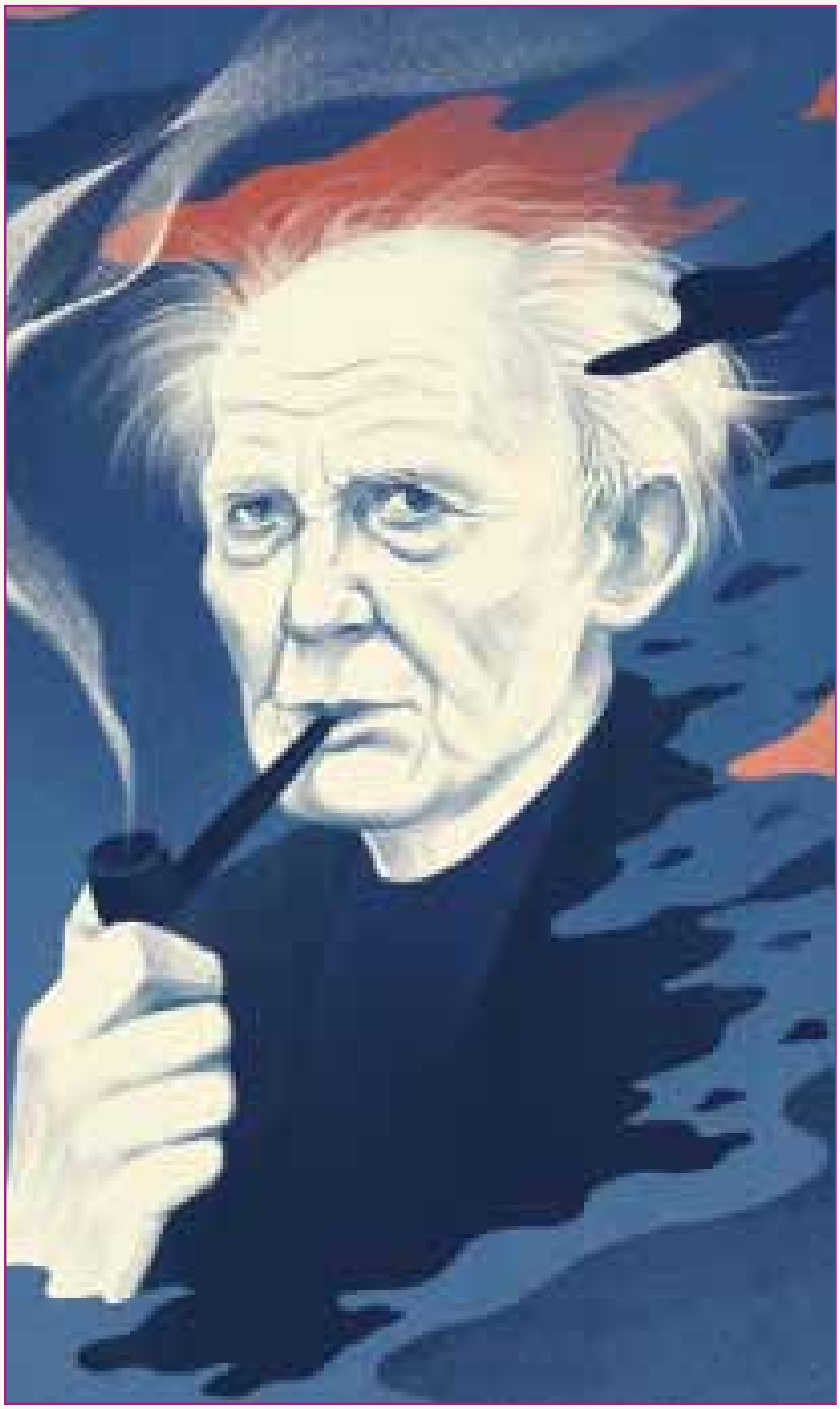

ينظر زيغمونت باومان، مثله مثل عدد من مفكري ما بعد الحداثة، نظرة نقدية إلى المجتمع، والحياة البشرية، والعلاقات التي تحكمها، وتكون في جوهرها علاقات محكومة بنفوذ قوى معينة، وبسلطتها التي تحقق لها مصالح اقتصادية ومعنوية. وهو ما يجعل المفكرين أولئك، يشككون بالثابت والمستقر من الأفكار والأنظمة، وبما ينتج عنه من وضع يكون ضارا بالحياة وبحرية الأفراد في التعبير والتصرف والحركة والفعل.

ففكرة المجتمع الدامج الذي عرفته الحداثة الصلبة، وهي الحداثة التقليدية المعروفة، والمقابل للحداثة السائلة، التي يتبناها كتاب باومان: (الأخلاق في عصر الحداثة السائلة) ترجمه إلى العربية سعد البازعي وبثينة الإبراهيم، وصدر عن هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة عام ٢٠١٦، فكرة موروثة من عصر شمولي سابق. وهو- أي المجتمع الدامج- يشير إلى المسعى المنظم لتحصين الحدود بين الداخل والخارج، وإقامة الفروق بينهما، ومنع أية حركة من الخارج إلى الداخل، أو العكس.

تفسر مثل تلك التصورات تحركات الهجرة الجماعية التي نشهدها اليوم، فهي مهما كانت أسبابها محاولة مشروعة، لإيجاد مكان لحياة ممكنة بعيدا عن أي إكراه قد تمارسه أية سلطة. وتفسر ما نشهده من احتشاد على أسس اختيارية، وغير مفروضة من جهة سياسية، أو من الدولة على الأفراد، فالحشود هي من تختار انتماءها، ومن تحدد غاياتها، ومن تنطلق لتحقيقها، ولإثبات نفسها، وحقها في الوجود.

وهي في ذلك تتحرك حركة شبه حرة بين أكثر من حد فكري وعاطفي وثقافي من دون التزام تام بمرجعية حادة التميّز. إذ هي تسمح لنفسها بالتنقل بين أكثر من مرجع مستفيدة من المرونة التي ينطوي عليها المذهب والمرجعيات الدينية المتعددة، مستغلة من الجميع ما يفيدها في تحقيق غاياتها المتمثلة في التعبير عن نفسها، وإثبات قيمة وجودها، وهيبذلك تكون عابرة للأوطان بالمعنى التقليدي، عابرة بانتمائها العاطفي، وحتى في فعلها. إذ قد تتنقل بين أكثر من جبهة قتال، على سبيل المثال، لتؤدي الفعل ذاته، وتحقق النتائج التي تريدها هي، لا التي تريدها سلطة، أو دولة، أو منظومة فكرية بعينها.

لذا لن يكون غريبا تنكر الحشود التي كانت مؤيدة قبل زمن قصير لشخصية سياسية، وانقلابها عليه، ومطالبتها بمحاكمته، والانحياز إلى آخر، فليس الشخص هو من يعنيها، ولا ما يمثله من مرجعية دينية أو سياسية أو فكرية، بقدر ما تعنيها حركتها الدؤوبة المتوصلة المتسارعة من أجل الانتصار لوجودها الراهن.

وفي وضع كهذا يفقد المثقف سلطته التقليدية، مثلما فقدها السياسي، وصار ينظر إليهما نظرة احتقار واستخفاف. لقد فرغ مقعد المثقف، وصار لمن يريد من الكتبة الافتراضيين على شبكات التواصل الاجتماعي، ومروجي الكتابة الملائمة لأذواق الحشود، أن يملأه من دون أن يكون قد حاز شهادات أكاديمية، أو سوّد صفحات كثيرة منتجا كتبا مهمة تجلب له الاعتراف. مثلما فرغ مقعد السياسي وصار لأية شخصية من شخصيات الأحزاب أن تملأه من دون أن تكون صاحبة كارزما، أو تاريخ نضالي. وفي الحالتين لا يتعدى الأول، ولا الثاني، في دورهما مسايرة رغبات الحشد، والحصول على رضاه، إلى درجة نجد معها تطابقا كبيرا بين آراء المثقف والأكاديمي والسياسي وأي عنصر من عناصر الحشد، وتشابها في اتجاه الحركة، والغايات.

كانتتلك محض قراءة لكتاب (الأخلاق في عصر الحداثة السائلة) لزيغمونت باومان، وعلينا ألا نقبل بكل ما ورد فيه من آراء، أو نعتنقها، وإلا خالفنا مسلمة من مسلمات الحداثة السائلة كما يسميها باومان، وهي الحركة المستمرة بين الحدود والأفكار والمفاهيم، لتحقيق غاية، هي آنية بالضرورة.

وعلينا أن ننظر إلى التفسيرات السابقة التي وردت في الكتاب، على إنها إحدى طريقتين (يحددهما ايتالو كالفينو في كتابه مدن خفية) للهرب من عذاب الجحيم الذي نعيش فيه. أولاهما: القبول به والتحوّل إلى جزء منه. والثانية: محاولة معرفة وتعلم: ماذا، ومن، في وسط الجحيم ليس جحيما، لاتخاذه سبيلا للمرور عبر الجحيم من دون أن يستهلكنا عذابه.

ولعل الطريقة الثانية هي التي يبشر بها كتاب الحداثة السائلة، ويدعونا إلى اتباعها، مؤقتا، والى حين العثور على تفسيرات جديدة أكثر إقناعا لما شهده، ويشهده، وسيظل يشهده العالم- ما دام الوجود بتفسير مارتن هيدغر هو استعادة مستمرة للماضي- من خراب وتماد في القبح والتشويه.